المجال التداولي وتقويم التراث في فكر طه عبد الرحمن

The field of deliberation and evaluation of heritage in the thought of Taha Abdel Rahman

د. درقام نادية *
Philo.rumi2015@gmail.com

تاريخ الإرسال: 17-11-2019 تاريخ القبول: 10-12-2019 تاريخ النشر: 19-12-2019

ملخص:

يعتبر الاشتغال على الفعل اللغوي مدخلا أساسيا للاهتمام بالتراث العربي. وقد شكلت أبحاث طه عبد الرحمن اللغوية التي أصلت للكثير من النظريات مرتكزا جوهريا في صيانة التراث العربي، فكانت نظريته حول التداولية أبرز تلك النظريات، حيث اتصفت ببعدها الإجرائي الذي ساعد على الوقوف في وجه الذين يستهدفون هذا التراث، وربما أخطرهم من يتبنونه فيستخدمون وسائل ومناهج منبثقة من مجال تداولي يختلف عن المجال التداولي الإسلامي الذي له قواعد وأصول خاصة به دون غيره، فلا يتحقق تقويم الممارسة التراثية إلا بالاستناد إلى هذا المجال التداولي، كما أن العملية الإبداعية داخل الفضاء الإسلامي مرهونة به.

الكلمات المفتاحية: مجال تداولي، منهج، لغة، تراث عربي، طه عبد الرحمن.

* قسم الفلسفة، كلية العلوم الاجتماعية، جامعة وهران2، الجزائر.

Abstract :

The work on the linguistic verb is an important input to the Arab patrimony. Taha Abdel-Rahman's linguistic research, which was the basis of many theories, was a major factor in the maintenance of the Arab patrimony. His theory of deliberation was the most prominent of these theories. It was characterized by its procedural dimension which helped stand up to those who target This patrimony, and perhaps the most dangerous of those who adopt it using methods and methods emanating from the field of deliberation is different from the Islamic deliberative field, which has its own rules and a ssets, but does not achieve the evaluation of heritage practice only on the basis of this deliberative area, and the creative process within the Islamic space is subject to it.

Keywords: The deliberative field, Evaluation. Method, The language. Arabic Heritage. Taha Abdel- Rahman

مقدمة

يعتبر طه عبد الرحمن علما من أعلام الفكر العربي المعاصر، يعود له الفضل في توضيح الكثير من القضايا وتصحيحها من منطلق علمي سليم، صوب من خلاله الكثير من الأخطاء. فقد ساعده على ذلك اشتغاله بالمنطق واللغة من جهة، ومن جهة أخرى اهتمامه البالغ بالتراث العربي الإسلامي بمختلف قضاياه. من هذا المنطلق تضاعف جهد طه عبد الرحمن، فكان يشتغل على تصحيح المفاهيم نظريا لما وقع لها من الخلط والابتذال من طرف بعض القيمين على الثقافة العربية الإسلامية من جهة، ومن جهة ثانية المحاولة الغربية لطمس الهوية العربية الإسلامية في بعديها اللغوي والفكري، مما اضطره إلى الذود عن تراثه، فوقف مجددا ومبدعا للكثير من المفاهيم والنظريات فكان ناحتا للكثير من المصطلحات التي أصبحت أكثر ارتباطا

بفكره ونهجه التقويمي، ولعل أشهرها مصطلح التداولية، فرغم وجود هذا المصطلح في تراثنا اللغوي العربي، إلا أن طه عبد الرحمن استطاع أن يقدم نظرية كاملة متكاملة، فكان فيلسوفا للغة بامتياز لدرجة اقتران التداولية في ثقافتنا العربية المعاصرة به، ولم ينحصر نجاحه في التنظير لإشكالية التداولية والتأصيل اللغوي لها فحسب، بل اقترنت التداولية بفكر طه عبد الرحمن في بعدها التطبيقي حيث استعان بمنهجه التداولي في تقويم التراث ومواجهة الفكر الغربي ونقده. بهذا كان مجددا لمفهوم التداولية لفظا ومعنى، نظرية وتطبيقا.من هنا نتساءل عن أهمية الانجاز الذي حققه طه عبد الرحمن على مستوى التنظير للتداولية : فما هي الاعتبارات الفكرية واللغوية للتداولية عند طه عبد الرحمن؟ وكيف استطاع أن يستخدمها في تقويم التراث؟ ما هي انعكاسات هذا الانجاز على استقلالية التفكير العربي الإسلامي؟ ماذا شكلت التداولية لمشروعه الفكري؟

تعتبر الثقافة العربية الإسلامية المرجعية الفكرية واللغوية للمفكر المغربي طه عبد الرحمن، فقد عمل هذا الفيلسوف المميز من خلال مسيرته العلمية على تعزيز هذا الرابط القوي للانتماء سواء من ناحية التمسك والاعتزاز بالتراث العربي والإسلامي أو من ناحية الدفاع عنه بالوسائل المتاحة لاسيما الاستفادة من الإنجازات اللغوية التي نجدها في تراثنا العربي نفسه أو التي حققها الفكر الغربي من خلال التطور الحاصل على مستوى مبحث اللغة، انطلاقا من أن البحث اللغوي يمكن أن يقدم حلولا عديدة تكون حاكمة بعلميتها على المنزلقين فكريا لعدة أسباب منها الإيديولوجي، أو الانبهار بالآخر أو الدخول في سياقات تقليدية تحكم على من ينتهج هذا النهج بالتبعية مما يؤدي إلى عدم الاستفادة من إنجازات الآخر ناهيك عن التملص مّن تراثه وفقدان الثقة في قدراته. من هذا المنطلق اشتغل طه عبد الرحمن على اللغة لعلاقتها الوطيدة مع الفكر، إذ يمكن اعتمادها في التأصيل للكثير من القضايا، والواقع أن البحث اللغوي شكل أبرز سمات مشروعه الفكري، إن لم نقل هو مرتكزه الأساس.

اشتهر طه عبد الرحمن بالخوض في ميدان اللغة، حيث أصبحت الكثير من النظريات اللغوية تنسب إليه، وقد ظهرت جديته الفلسفية وقدرته اللغوية حين كان يتوج شغله النظري بالتفعيل الإجرائي، وهذا ما نجده في تناوله لموضوع التداولية، إذ نلمس البعد النظري والبعد الإجرائي (التطبيق)، حيث تبرز شخصية طه عبد الرحمن الفلسفية ذات البعد العملي. سنقف على مفهوم التداولية في التراث العربي ناهيك عن مفهومها في الفكر الغربي المعاصر، لنستكشف الزاوية التي اهتم بها طه عبد الرحمن.

التداولية في التراث العربي:

يزخر التراث العربي بعلوم ومعارف تنوعت مواضيعها وقضاياها، إذ يعتبر البحث اللغوي من البحوث التي ازدهرت وتطورت ضمن التراث العربي، لذلك، إذا أردنا التعرف على التداولية في التراث العربي، فسنجد على مستوى ورود مفهوم التداولية في المعاجم العربية، ففي لسان العرب مثلا: دال يدول و أدال الشيء جعله متداولا، وتداولت الأيدي الشيء أخذته مرة تلو الأخرى، وقالوا دواليك أي مداولة على الأمر، ودالت الأيام أي دارت والله يداولها بين الناس.) بن منظور، (د.ت)، ص 251)وذكرت بمعنى التحول وعدم بقاء الشيء على حاله، فتداولنا الأمر أخذناه بالدول، وقالوا دواليك أي مداولة على الأمر ودالت الأيام أي دارت والله يداولها بين، وتداولته الأيدي أخذته هذه مرة وهذه مرة. (بن منظور، (د.ت)، ص 251) أما الزمخشري، فيذكر التعريف التالي:هي انقلاب الزمان من حال إلى حال، الدولة: العقبة في المال وتداوله، أخذوه بالدول.(الزمخشري، (د.ت)، مادة دول)

كان الاهتمام البالغ عند العلماء العرب بالبعد التداولي للغة، وقد بين الدكتور مسعود صحراوي في كتابه "التداولية عند علماء العرب" التوجه التداولي في تحليلات العلماء العرب، إذ يقول:"وقد لاحظنا أن القول بمبدأ القصد، الذي قال به الدسوقي، نقلا عن التفتازاني والمغربي

وغيرهما، يقوي التوجه التداولي في تحليلات العلماء العرب ويبعدها عن حدية الأدوات المنطقية وجفافها. (صحراوي، 2005، ص71)وقد بحث عن التداولية عند الأصوليين والنحاة، حيث أشار إلى أنه ومن مراعاة البعد التداولي في النحو العربي أن كثيرا من النحاة العرب كانوا غير بعيدين عن هذا التصور التداولي في تطبيقهم لظواهر الخبر والإنشاء على موضوع بحثهم الخاص، ومن ثم في مراعاتهم لأهم "الأفعال الكلامية" المنبثقة عن تلك المبادئ التداولية. (صحراوي، 2005، ص 225)

التداولية في الفكر الغربي المعاصر

شهد مبحث اللغة في الفكر الغربي المعاصر نقلة نوعية، حيث كان التوجه لفلسفة اللغة ملفتا، وقد استثمرت الإنجازات اللغوية المعاصرة في تطوير الكثير من العلوم، وكانت التداولية من بين المواضيع اللغوية البارزة التي أخذت حيزا من جهود علماء اللغة الغربيين، حيث يبدو مصطلح التداولية على درجة من الغموض، إذ يقترن به في اللغة الفرنسية المعنيان التاليان: المعنى الأول محسوس، و الثاني ملائم للحقيقة. أما في اللغة الإنجليزية وهي اللغة التي كتبت بها أغلب النصوص المؤسسة للتداولية في الغالب تدل على ماله علاقة بالأعمال والوقائع الحقيقية. (بلانشيه، 2007، ص 17) إذ اقترنت تسمية التداولية في الفكر الغربي بالمذهب البراجماتي. (بلانشيه، 2007، ص 17)

ارتبطت التداولية من حيث التأسيس بالمفكر أوستين، فهو الذي وضع النواة الأولى للتداولية مع تلميذه سورل في حقل فلسفة اللغة العادية، إذ طورا من مفهوم العمل اللغوي. (بلانشيه، 2007، ص 20) قد تعمق أوستين في إنجاز فلسفة دلالية تهتم بالمضامين والمقاصد التواصلية، وتختلف عما عرفناه عند علماء الدلالة اللغويين، وخصوصا البنيويين منهم، فقد كان

أوستين يلح على القيمة التداولية لعبارات لغوية كثيرة تستخدم في اللغة الإنجليزية، وربما في كل اللغات. (صحراوي، 2005، ص 10).

من البعد السيميائي إلى البعد التواصلي

يرى شال موريس 1938: "أن التداولية جزء من السيميائيات، فهي تهتم بمعالجة العلاقة بين العلامة ومستعمليها." (آيت أوشان، 1200، ص55) إنها دراسة في شرائط استعمال اللغة، أو أنها دراسة للمعنى التواصلي أو معنى المرسل في كيفية قدرته على إفهام المرسل إليه بدرجة تتجاوز معنى ما قاله.(الشهري، 1998 ص 22)

العلاقة بين النص والسياق

تعنى التداولية بالشروط والقواعد اللازمة الملائمة بين أفعال ومقتضيات المواقف الخاصة به، أي العلاقة بين النص والسياق. (فضل،)د.ت)، ص، 24، 25)كما أن التداولية تجمع بين المنطق واللسانيات، فالتداولية هي مجمع من البحوث المنطقية واللسانية. وهي كذلك الدراسة التي تُعنى باستعمال اللغة. وتهيي تم بقضية التلاؤم بين التعابير الرمزية والسياقات المرجعية و المقامية. (فضل، (د.ت)، ص،)08بالإضافة إلى اهتمام التداولية بالخطاب، فإنها تمثل دراسة تهتم باللغة في الخطاب وتنظر في الوسميات الخاصة به قصد تأكيد طابعه الخطابي.) فضل، (د.ت)، ص، 18، 19) كما أنها نسق معرفي استدلالي عام يعالج الملفوظات ضمن سياقاتها التلفظية، والخطاب ضمن أحوالها التخاطبية، فهي تدرس اللغة بوصفها علما تخاطبيا تواصليا يُعنى بالأبعاد الخطابية الإستعمالية للغة. (فضل، (د.ت)، ص، 19)

استفادت النظرية التواصلية واللسانية من موضوع التداولية، وذلك لاهتمامها بشكل واقعي بفعل اللغة، فالتداولية شرح كيفية جريان العمليات الاستدلالية في معالجة الملفوظات،

وتبين أسباب أفضلية التواصل غير المباشر وغير الحرفي على التواصل الحرفي المباشر. (فضل، (د.ت)، 39)

لا أحد ينكر التطور الذي تحقق على أيدي اللغويين الغربيين، لكن هذا لا يعني البقاء عند حدود الانبهار بهم . خاصة وأن الفضاء العربي له إمكانات لغوية تغني عن الاستجداء بالآخر مهما كانت قدرات هذا الآخر، إذ لكل فضاء مجاله التداولي، وهذا ما ناضل من أجله الفيلسوف طه عبد الرحمن ولا يزال، فكان رائدا في تناوله لموضوع التداولي في بعديها النظري والتطبيقي.

نحت مصطلح المجال التداولي

تعتبر اللغة والمنطق من أهم المجالات التي اهتم بها طه عبد الرحمن، ويرجع اهتمامه باللغة إلى ما حصل من تطورات في الفكر والفلسفة الغربيين طول القرن العشرين، ويتحدد هذا الاهتمام في الانتقال من التفكير بواسطة اللغة إلى التفكير في اللغة بحد ذاتها، واعتبار حل المعضلات الفكرية والفلسفية موقوفا على التحليل اللغوي. (مشروح، 2009، ص60)

كما أن الاعتناء باللغة وعلومها هو سلوك معروف في الحضارة التي ينتسب إليها الفيلسوف طه عبد الرحمن، وذلك لأهمية اللغة، فلا يخفى على أحد أن اللغة أداة من أقوى الأدوات التي يستخدمها المتكلم لتبليغ مقاصده إلى المخاطب وللتأثير فيه بحسب هذه المقاصد، وبقدر ما تكون هذه الأسباب مألوفة للمخاطب وموصولة بزاده من الممارسة اللغوية، فهما وعملا، يكون التبليغ أفيد والتأثير أشد. (عبد الرحمن، 2007، ص245)

كتب طه عبد الرحمن العديد من المؤلفات تناولت إشكاليات لغوية، حيث تنسب إليه نظريات في هذا المجال، كما كانت له القدرة على نحت الكثير من المصطلحات أو إعطاء

مفاهيم لمصطلحات موجودة، ولعل التداولية تعتبر من المصطلحات التي ارتبطت فلسفتها المعاصرة في الفضاء العربي والإسلامي بطه عبد الرحمن، فقد صاغ ما يعرف بالمجال التداولي، يقول عنه:"لقد وضعنا مصطلح " مجال التداول" أو "المجال التداولي" منذ أول اشتغالنا بالنظر في الممارسة التراثية في مطلع العقد السابع، وذلك لحاجة اقتضاها هذا النظر، ومنذ ذلك الحين، مازالت فائدة هذا المصطلح تتزايد في أعين الباحثين الذين تلقوه بالقبول، سواء منهم الذين يشتغلون بالتراث، أو أولئك الذين يتعاطون الدراسات اللغوية. ونود هنا أن نوضح وجوه إجرائية هذا المصطلح بالنسبة للممارسة التراثية عموما، وبالنسبة لعملنا هذا خصوصا. (عبد الرحمن، 2007، ص243)

يفهم أن موضوع التداولية هو محط اهتمام المنشغلين بالتراث والمهتمين بالدراسات اللغوية، ويعتبر طه عبد الرحمن أكثرهم إبداعا في هذا المجال، ويظهر ذلك من خلال قوله: "ولما كنا استحدثنا مفهوم "المجال التداولي" بوصفه أداة من أدوات تقويم التراث، فلا بد أن يكون، ككل جديد، مثار أسئلة و اعتراضات ترد على ما ذكرناه من أوصاف تخصه وقواعد تحدده و إخلالات تضره، لذا، فقد اجتهدنا في الإتيان بالإجابات الممكنة عليها بما يزيد في توسيع الفوائد العملية لما ذكرناه، وفي إبراز وجوه إجرائية هذا المفهوم العملية.)عبد الرحمن، 2007، ص244)

قد تصدى طه عبد الرحمن لجميع الاستفسارات التي يتوقع طرحها حول نظرته لمفهوم التداول انطلاقا من تعريفه وصولا إلى كيفية استخدامه، فعن التعريف يقول:"من المعروف أن الفعل: تداول في قولنا: "تداول الناس كذا بينهم" يفيد معنى "تناقله الناس و أدواره فيما بينهم"، ومن المعروف أيضا أن مفهوم "النقل" ومفهوم "الدوران" مستعملان في نطاق اللغة الملفوظة كما هما مستعملان في نطاق التجربة المحسوسة، فيقال: "نقل الكلام عن قائله" بمعنى رواه عنه، كما

يقال "نقل الشيء عن موضعه" أي حركه منه، ويقال: "دار على الألسن" بمعنى جرى عليها. (عبد الرحمن، 2007، ص244) ويقف طه عبد الرحمن على أهمية ذلك في عملية التواصل والتفاعل، النقل والدوران يدلان في استخدامهما اللغوي، على معنى النقلة بين الناطقين، أو قل معنى "التفاعل"، فيكون التداول جامعا بين جانبين اثنين هما: التواصل والتفاعل، فمقتضى "التداول"، إذن، يكون القول موصولا بالفعل. (عبد الرحمن، 2007، ص244)

أما فيما يخص تعريف كلمة مجال، فيقول:" ومن المعروف كذلك أن لفظ "المجال" مشتق من الفعل: "جال"("يجول") الذي يدل، لغة، على معنى "دار"، فيكون المجال هو "موضع الدوران"، فيكون المراد من إضافته إلى التداول هو تحديد مكان وزمان هذه النقلة أو الحركة، نطقا كانت أو حسا، هذا فيما يخص المعنى الأصلي للفظ "التداول" ولفظ "المجال". (عبد الرحمن، 2007، ص244)

لا يفصل طه عبد الرحمن بين المعنى الاصطلاحي والمدلول اللغوي لكلمة المجال التداولي، إذ يقول:"أما عن المعنى الاصطلاحي الذي نستعملها فيه، فقد أردنا أن يكون موصولا بهذا المدلول اللغوي وصلا، لأن هذا الوصل هو الذي يجعل أوصافه الإجرائية مألوفة ومقبولة، وينقل إليها الإنتاجية المورثة والمبثوثة في هذا المعنى الأصلي. وعلى هذا، فالتداول، عندنا، متى تعلق بالممارسة التراثية، هو وصف لكل ما كان مظهرا من مظاهر التواصل والتفاعل بين صانعي التراث من عامة الناس وخاصتهم، كما أن المجال، في سياق هذه الممارسة، هو وصف لكل ما كان نطاقا مكانيا و زمانيا لحصول التواصل والتفاعل، فالمقصود ب "مجال التداول"، في التجربة التراثية، هو إذن محل التواصل والتفاعل بين صانعي التراث." (عبد الرحمن، 2007، ص244)

إن التأصيل اللغوي لمصطلح المجال التداولي لا ينفك عن البعد الإجرائي لهذا المصطلح الذي يرتبط ارتباطا وثيقا بما هو تراثي، وهنا يصرح طه عبد الرحمن: "وحاصل الكلام في المجال

التداولي هو أنه مقام التواصل والتفاعل بين أفراد المجتمع باعتبارهم صانعين لتراث مخصوص، وأن هذا يقتضي أصولا ثلاثة، هي : العقيدة واللغة والمعرفة، ويأخذ فيها بطرق معينة تفصله عن غيره، إذ تميزه عن المجال الثقافي الاجتماعي باختصاصه بالتطبيق، وعن المجال الفكراني بجمعه التحقيق إلى التقويم، وعن المجال التخاطبي بجمعه بين الشمول والدوام، وتميزه عن الجميع بكون التغيير الذي يطرأ عليه تغييرا موصولا ودقيقا." (عبد الرحمن، 2007، ص270، 271)

يعمل طه عبد الرحمن على رفع اللبس الذي يمكن أن يقع حول الفصل بين المجال التداولي وباقي المجلات الثقافية والاجتماعية، فيشير إلى "تميز المجال التداولي عن غيره من المجالات المجتمعية: إن الإجابة على الاعتراض الأول تكون ببيان خصوصية مجال التداول بمقابلته بالمجالات الأخرى المشابهة. اعلم أن مجال التداول ليس هو " المجال الثقافي الاجتماعي" وإن كان يشاركه في بعض الأوصاف، فهو، وإن تعلق بالثقافة مثله، فإنه لا يتناول منها إلا ما دخل حيز التطبيق وأثر في الجانب العملي من الحياة الثقافية، فقد نجد في المجتمع بعض المعارف (آراء ونظريات) وبعض المقاصد (قيما وعقائد) التي نقلت إليه بطريق أو بآخر، ولكنها، على قدم ورودها عليه وشدة الدعوة إليها، بقيت منقطعة عن سبل التحقيق ومنفصلة عن آفاق التفاعل مع معارفه ومقاصده الحية، فالمجال التداولي لا يعتبر هذا الصنف من المعارف والمقاصد، ولا يقبل إلا الصنف الذي ثبت استعماله وعم انتشاره بين أفراد المجتمع، على خلاف المجال الاجتماعي الذي يضم كل التصورات والاعتقادات، سواء منها تلك التي رسخت بالاستعمال أو تلك التي بقيت على حال الإهمال، عالقة ببعض الأذهان، إذ يكفي في انتسابها إليه أن تكون قد دخلت المجتمع وظهرت على يد بعض أفراده، فعلى هذا، يكون المجال التداول أخص من المجال الثقافي الاجتماعي، إذ يقوم على مبدأ تطبيق المعارف والمقاصد تطبيقا شاملا لجميع الأفراد. (عبد الرحمن، 2007، ص248)

مبادئ المجال التداولي

يضع طه عبد الرحمن ثلاثة مبادئ للمجال التداولي للفصل بينه وبين باقي المجالات، فيقول:"إن المجال التداولي ينبني على مبادئ ثلاثة تميزه عن غيره من المجالات الإجرائية: أولها، مبدأ التطبيق الذي يفصله عن المجال الثقافي الاجتماعي، والثاني، مبدأ الجمع بين التحقيق والتقويم الذي يفصله عن المجال الفكراني، والثالث، مبدأ الجمع بين الشمول والدوام الذي يفصله عن المجال التخاطبي". (عبد الرحمن، 2007، ص247)

كما أن هناك قوانين يتضمنها المجال التداولي تتحكم في عملية التغيير، " وهكذا، فإن مجال التداول، على الرغم من ثباته بموجب دوره التوجيهي، يتغير، لأن هذا المجال يحمل كل ما يرد عليه من ألوان الثقافة ومظاهر الحضارة على التبدل بحسب مقتضياته التواصلية والتفاعلية وإن كان تغيره يحصل بقوانين خاصة تختلف عن قوانين هذه الأشكال الثقافية والحضارية التي تفد عليه والتي يمارس عليها توجيهه، كما أن هذا التغير لا يقع فجأة، لأن في التغير المفاجئ دلالة، إما على الانقطاع الكلي عن هذا المجال، مما تنشأ عنه التبعية للغير مع الانحطاط إلى أسفل درجات الوجود و الظهور، وإما على القطع الجزئي لأصل تداولي مخصوص، مما يفضي إلى فقدان الاستقرار وضحالة الاستثمار." (عبد الرحمن، 2007، ص250)

المنهج والآليات

اعتمد طه عبد الرحمن على الممارسة التراثية لاستخراج القواعد التداولية عن طريق المنهج الاستقرائي، وعن هذا يقول:"لقد قلنا بأن أقسام الأسباب التداولية الباعثة على التواصل و التفاعل ثلاثة، وهي القسم العقدي والقسم اللغوي والقسم المعرفي، ولابد أن يتكون كل قسم منها من جملة من القواعد الخاصة، و أن تنزل هذه القواعد منزلة المبادئ الأولى التي تتفرع منها

المظاهر الثقافية والحضارية الأصلية، والتي تمتحن بها قيمة المظاهر الثقافية والحضارية المنقولة. ولكي نستخرج هذه القواعد التداولية، نلجأ إلى طريق الاستقراء، فنتصفح جزئيات الممارسة التراثية، واقفين على ما حمل منها صبغة الاستعمال ودل على التواصل والتفاعل، من هذا التصفح بعض المبادئ التي تنتظم بها أشتات هذه الجزئيات التراثية." (عبد الرحمن، 2007، ص250، 251)

أصول المجال التداولي

يتحدد المجال التداولي حسب طه عبد الرحمن بثلاثة أصول فتميزه عن غيره، :""صحة العقيدة"، و"بلاغة اللسان"، و"سلامة العقل"، قد ذكرت فيها إما متفرقة أو مجتمعة. فلنسم هذه العناصر باسم "أصول" المجال التداولي." (عبد الرحمن، 2007، ص252، 253) "كما أن النصوص التراثية قد تورد بعض عناصر مجال التداول أو كلها مجتمعة فيما بينها، كأن تجمع بين الأصل اللغوي والأصل العقدي في إشادتها بإعجاز الرسالة المحمدية، أو تجمع بين الأصل اللغوي والأصل المعرفي، فتجمد صفاء الفكر عند العرب، أو تجمع بين الأصل العقدي والأصل المعرفي، فتنوه بمكارم الأخلاق التي يتحلى بها العرب." (عبد الرحمن، 2007، ص253)"لأن التداول هو عبارة عن البقاء عن العمل المتعدي نفعه إلى الغير، فيكون تواصلا وتفاعلا، والمتعدي نفعه إلى الآجل، فيكون تخلقا وتقربا". (عبد الرحمن، 2015، ص 62)

إن خصوصية المجال التداولي هي التي تُحصنه من الآخر فتحفظ له هويته وتعزز التواصل بين أصحاب المجال التداولي، فيتضح أن القواعد التداولية تتناول المظاهر الثلاثة للممارسة التراثية: المظهر التفضيلي الذي يمد هذه الممارسة بأسباب التمايز عن غيرها من الممارسات، تثبيتا لهويتها و إظهارا لخصوصيتها، والمظهر التأصيلي الذي يمد أهلها بأسباب التواصل فيما بينهم، حتى تنهض هممهم إلى العمل وفق مقاصد ومبادئ و أساليب محددة وقارة، والمظهر التكميلي

الذي يمدهم بأسباب التفاعل فيما بينهم، حتى يشق عملهم طريقا إلى نافع الإنتاج وخالص الإبداع، وبفضل اشتمال هذه القواعد على المظاهر التراثية الثلاثة: التفضيل والتأصيل والتكميل، فإنها تستوفي شرط الإحاطة بمقومات التداول. (عبد الرحمن، 2007، ص256)

المجال التداولي وفعل التقويم

اشتهر طه عبد الرحمن بالتأصيل النظري للكثير من القضايا، والتي لم يقصد الخوض فيها من أجل التنظير فحسب، بل اتسمت فلسفته بالبعد الإجرائي، فاهتمام طه عبد الرحمن بموضوع التدوالية جعله يبدع ما يعرف بالمجال التداولي ويستخدمه في تقويم التراث.

نلمس اعتزاز طه عبد الرحمن بالتراث العربي الإسلامي، وافتخاره بأمته الإسلامية، في أكثر من موقع، فمثلا يقول:"ليس في جميع الأمم، أمة أوتيت من صحة العقيدة وبلاغة اللسان وسلامة العقل مثلما أوتيت أمة العرب، تفضيلا من الله." (عبد الرحمن، 2007، ص252)من هذا المنطلق وقف طه عبد الرحمن في وجه العابثين بهذا التراث، سواء من أبنائه أو من غيرهم، لذلك يعلن أنه لا سبيل إلى تقويم الممارسة التراثية ما لم يحصل الاستناد إلى المجال التداولي. (عبد الرحمن، 2007، ص243)

انطلاقا من أن الاختلاف بين الأمم حاصل لميزات تنفرد بها كل أمة عن الأخرى، لاسيما التمايز الحاصل على مستوى الإنتاج الفلسفي، ولما كانت الألسن التي وضع بها القول الفلسفي متعددة جاز أن تختلف المضامين الفلسفية باختلاف الألسن التي تنقلها. " (عبد الرحمن، 2006، ص53) وذلك – حسب طه عبد الرحمن – أن الإنتاج الفلسفي خاضع لسياقات اجتماعية وتاريخية، إذ يصرح:" بَدَهي أن كل فلسفة، كائنة ما كانت هي نتاج سياق تاريخي

ونطاق اجتماعي مخصوص ولا وجود لفلسفة بلا هذا السياق التاريخي ولا هذا النطاق الاجتماعي." (عبد الرحمن، 2006، ص53)

يعترض طه عبد الرحمن على الذين تناولوا التراث مستعينين بأدوات يستخدمها مجال تداولي آخر، فيقول: "لقد أبطلنا النظرة التجزيئية إلى التراث بالاعتراض على الوسائل التي اتخذت في تقويمه، لكونها نقلت من مجال تداولي مغاير للمجال التداولي الإسلامي العربي، ولكون الناقلين لها لم يحيطوا بتمام أسرارها التقنية، فضلا عن القيام بنقدها وتصحيحها قبل إنزالها على التراث". (عبد الرحمن، 2007، ص237)وبهذا يعتبر أن التمسك بالمجال التداولي الأصلي هو ضمانة التأكد من الأصل للتخلص من التبعية للآخر، وعن الدعوى التي تبناها طه عبد الرحمن تحت اسم " دعوى التداول الأصلي" ومضمونها، يقول:" لا سبيل إلى تقويم الممارسة التراثية ما لم يحصل الاستناد إلى مجال تداولي متميز عن غيره من المجالات بأوصاف خاصة ومن ضبط بقواعد محددة يؤدي الإخلال بها إلى آفات تضر بهذه الممارسة". (عبد الرحمن، 2007، ص243) ومن ثم، "فلا سبيل إلى معرفة الممارسة التراثية بغير الوقوف على التقريب التداولي الذي يتميز عن غيره من طرق معالجة المنقول باستناده إلى شرائط مخصوصة يفضي عدم استيفائها إلى الإضرار بوظائف المجال التداولي، فضلا عن استناده إلى آليات صورية محددة".)عبد الرحمن، 2007، ص273)

تقف خصوصية كل أمة حائلا أمام العبث بتراثها، فصيانة التراث يكون مدخله الالتزام بالمجال التداولي، فالمجال التداولي يشمل اللغة المستعملة والثوابت العقدية وجانب من الممارسة المعرفية، بحيث يكون العمل الذي تختص به هذه العناصر حاصلا بالتراكم متغلغلا في تاريخ المجتمع.) عبد الرحمن، 2012، ص39)

هكذا نجد أن حفظ خصوصية التراث عند طه عبد الرحمن تكون بحفظ خصوصية التداول. أما حفظ الخصوصية التداولية يتم من خلال أربعة وجوه: حفظ الحقيقة العقدية، حفظ الحقيقة الخبرية حفظ الحقيقة العملية حفظ الحقيقة اللغوية. الخصوصية التي تورث استقلال الفلسفة الإسلامية تقوم في ازدواج الكونية على مستويات أربعة: مستوى العقيدة الدينية... مستوى النظر العقلي... مستوى العمل السلوكي... مستوى اللسان العربي. (عبد الرحمن، 2012، ص51، 52)

تقويم التراث

يؤكد طه عبد الرحمن على رؤيته في تقويم التراث التي ترتكز على تبني أطروحته حول المجال التداولي، و الذي استقاه من التراث نفسه، وذلك "لأن الأصول التراثية التي يتم بمقتضاها تقريب المنقول المنطقي والأخلاقي، ليست سوى أصول ما دعوناه باسم "مجال التداول الإسلامي العربي" أو " مجال التداول الأصلي"، أو باختصار "مجال التداول"، ونحن ماضون الآن إلى بسط الكلام في هذا المفهوم الذي نعده بمنزلة الدعامة الأساسية التي تستند إليها نظريتنا في تكامل التراث، وتماشيا مع طريقتنا في الابتداء بتحرير دعاوى بصدد ما نريد بيانه، نشرع في صوغ دعوى خاصة بمجال التداول الإسلامي العربي، حتى إذا ظهر بجلاء مقصودنا، مضينا إلى إثباته بالأدلة التي نراها ضرورية وكافية، ونسمي هذه الدعوى باسم "دعوى التداول الأصلي"•." (عبد الرحمن، 2007، ص243)

استطاع طه عبد الرحمن بنظريته التداولية أن يبرهن على إمكاناتها الإجرائية، حيث سعى إلى خلق منعطف فلسفي انطلق مع كتابة اللغة والفلسفة، ويمثل تجديده في دعوته إلى فلسفة عربية تداولية لتتوالى عطاءاته التجديدية من أجل تحرير القول الفلسفي العربي وفتح سجل

فلسفي حول طبيعة الخصوصية الفلسفية ومدى كونية الخطاب الفلسفي) مشروح، 2009، ص50)

سخر طه عبد الرحمن جهده وحياته للوقوف على مقومات الإبداع فاستعان بكل الوسائل اللغوية والمنطقية، وظل همه المنهجي الأول في مشروعه تحصيل الأسباب التي جعلت المتقدمين و المتأخرين يبدعون، وظلت غايته من حربه على التقليد أن يخرج المثقف العربي من اغترابه ويجعله معتزا بمجاله التداولي الإسلامي مستلهما حداثته من القيم الإسلامية، ومن ثم يستطيع هذا المثقف العربي أن يضع الفكر الغربي في حجمه الطبيعي، ويتفاعل معه في ضوء منهجه. (أرحيلة، 2003، ص، ص، 42، 43)

تمكن طه عبد الرحمن من الوقوف في وجه التابعين للثقافة الغربية، لإعادة الثقة في تراثنا العربي، ولذلك قيل عنه أنه "أنزل الفلسفة من عليائها وكسر قلاعها، وسخر من مدعي التفلسف في رحابها، نتيجة افتقارهم إلى فقهها وعجزهم عن تسخير قدراتهم، فعاشوا في غفلة وجهل". (أرحيلة، 2003، ص، 55)

بين طه عبد الرحمن أن الاستغناء عن المنطق من طرف هؤلاء المقلدة جعلهم يبتعدون عن الممارسة الفلسفية، ولأن المعتمد المنهجي للفلسفة هو المنطق لاحظ أن الآفة الخطابية التي وقع فيها المقلدة من المتفلسفة العرب، أنهم فصلوا بين الفلسفة والمنطق نتيجة تصور خاطئ للمنطق و كأن الفلسفة تصح بغير منطق يضبطها وبغير منهج يوجهها في الاستشكالات والاستدلالات. (أرحيلة، 2003، ص، 31)

من أجل تجديد الحركة الإبداعية، نجد طه عبد الرحمن قد وضع للفلسفة منهجا علميا و أطلق عليه فقه الفلسفة، وهو مشروع يمكن للمسلمين من الإبداع الفلسفي في مجالهم التداولي

الخاص، ويوقفهم على أسباب التفلسف والاقتدار على الاجتهاد فيه والتعامل مع الخطاب الفلسفي عامة. (أرحيلة، 2003، ص77)

خاتمة

رغم الانتقادات التي وجهت لطه عبد الرحمن إلا أنه كان يرد بمنهج علمي صارم، حيث استفاد من تمرسه باللغة والمنطق وسد كل الثغرات التي يمكن أن يستغلها الرافض لمشروع نهضوي كمشروع طه عبد الرحمن الذي يتطلع لأمة إسلامية متحررة من الآخر الذي يصر على سلبها لاستقلاليتها الفكرية. وبتصوره عن المجال التداولي ألجم الكثير من الألسن التي تريد التملص من لغتها العربية وهويتها الإسلامية، وبتقديمه رؤية كاملة عن تقويم التراث قطع الطريق بكل هؤلاء المتربصين بالتراث الإسلامي.

قائمة المراجع

1- أرحيلة، عباس، 2013، فيلسوف في المواجهة، قراءة في فكر طه عبد الرحمن، لبنان، المركز الثقافي العربي
2- أوشان، علي آيت، 2000، السياق والنص الشعري من البنية إلى القراءة، المغرب، دار الثقافة للنشر والتوزيع
3- بلانشيه، فليب، 2007، التداولية من أوستن إلى غوفمان، ترجمة صابر الحباشة، سوريا، دار الحوار للنشر والتوزيع
4- بن منظور، أبو الفضل جمال الدين بن مكرم،)د.ت)، لسان العرب، مج4، لبنان، دار صادر

5- الزمخشري، جار الله أبو القاسم،)د، ت)، أساس البلاغة، تحقيق: محمد باسل عيون سود، لبنان، دار الكتب العلمية

6- الشهري، الهادي بن ظافر، 2004، استراتيجيات الخطاب، مقاربة لغوية تداولية، لبنان، دار الكتاب الجديد

7- صحراوي، مسعود، 2005، التداولية عند علماء العرب، لبنان، دار الطليعة

8- عبد الرحمن، طه، 2012، سؤال العمل، بحث عن الأصول العملية في الفكر والعلم، المغرب، المركز الثقافي العربي

9- عبد الرحمن، طه، 2006، الحق العربي في الاختلاف الفلسفي، المغرب، المركز الثقافي العربي

10-عبد الرحمن، طه، 2007، تجديد المنهج في تقويم التراث، المغرب، المركز الثقافي العربي

11-عبد الرحمن، طه، 2015، سؤال المنهج في أفق التأسيس لأنموذج فكري جديد، لبنان، المؤسسة العربية للفكر والإبداع

12-فضل، صلاح،)د، ت)، بلاغة الخطاب وعلم النص، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

13-كورتمان، بيتر، و آخرون، 2007، أطلس الفلسفة، ترجمة: جورج كتورة، لبنان، المكتبة الشرقية

14-مشروح، إبراهيم، 2009، طه عبد الرحمن قراءة في مشروعه الفكري، لبنان، مركز الحضارة لتنمية الفكر